الجزء الثالث المجلد الرابع

المقتبس

ربيع الاول سنة ١٣٢٧

وداع وعتاب

للسلطان السابق عبد الحميد

الله أكبر فالظلاّم قد علموا ... لأيّ منقلب يفضي إلا لي ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت ... أركانه وتولت أهلهُ النقمُ
وحصحص الحق في عزٍّ وفي ظفرٍ ... يحفه خادماه السيفُ والقلمُ
ثارت له عصبةٌ كانت مشردةً ... وقد تمددها الإرهاق والعدمُ
من كل أروع في حيزومة حنقٍ ... في نفسه عزة في أنفه شممُ
عبد الحميد استمع منهم مناقشةً ... فطالما صبروا بل طالما كظموا
غادرت أمتك المنكود طالعها ... تغض مقلتها إن عدّت الأممُ
أطلقت فيها سيوف الغادرين وقد ... كانت بجلك بعد الله تعتصمُ
الله الله يا راعي القطيع فقد ... لاقت مصارعها في رعيك الغنمُ
حماتنا ما تنوءُ الراسيات به ... كيف الصنيع وأنت الخصم والحكم
فكم شكونا ولم تسمع شكايتنا ... وكم دعونا وحظ الدعوة الصممُ

ولِيُّ نعمتنا قل لي أما بطلت ... تلك الولاية لما ضاعت النعمُ
فلو رفقت أمير المؤمنين بنا ... ما كان أنفث مصدور وسال دمُ
محافظ الحرمين أعدل فهل آمنت ... في ظلمك الكعبة الزهراء والحرمُ
أم حج حجاج بيت في دعةٍ ... بدون أن يرهقوا فيه ويهتضموا
وليته فاسقاً لم يرعَ حرمة من ... في ذمة الله ضاعت عنده الذممُ
كم استجاروا عليه فازدريت بهم ... إن لم تكن ناقماً فالله منتقمُ
رب الهلال أجب هل كنت تمنحه ... ما اعتاد من نصرات ذلك العلم
ماذا فعلت بأحرار البلاد وما ... جنوا على الدين والدنيا وما اجترموا
حتى قسمتهم شطرين فازدحمت ... على جسومهم النيران والرخم
مزقت شملهم في كل ناحية ... فأرغموك بحول الله والتأموا
ويا سلالة عثمان أما اتصلت ... منه إليك الصفات الغر والهمم
أين الغطاريف أرباب العزائم من ... أسلافك الصيد من بالعدل قد عظموا
شادوا لك العزة القعساء من قدم ... فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة ... وفي زمانك لا سيف ولا قلم
حصدت ما زرعوا فرقت ما جمعوا ... هدمت ما رفعوا بعثرت ما نظموا
ملكتنا فرأينا منك طاغية ... لم يدر نداً له المشهود والقدم
نيرون عندك أو فرعون قد غفرت ... زلاته واستحبت شاهها العجم
حجاج عصرك بل تولي العقاب بلا ... ذنب ومزّاك عنه الجمع والنهم
قد اخترعت ضروباً للمظالم والتنكيل ما فطنوا فيها ولا حلموا
خليفة الله قد خالفت ما أمرت ... به الشريعة والتنزيل والكلم
وسيرة الخلفاء الراشدين بها ... خير المواعظ للظلام لو فهموا

ركبت مركب جوزٍ ليس يقبله ... ممن يخلفه في قومه الصنم
دمرت بيتك يا هذا فأنت إذن ... عدو نفسك أو قد مسك اللمم
حشدت زمرة غدارين كم سفكوا ... واسترفوا ثم لا قيدوا ولاغرموا
المخلصون تولوا منك وانهزموا ... والخائنون على أبوابك ازدحموا
أسرفت في نهب بيت المال فاستلبت ... منه الجواسيس ما شاؤوا وما غنموا
عصابة ثقلت في الناس وطأتهم ... صموا عن الحق في أغراضهم وعموا
اخترتهم واختيار المرء شاهده ... يا ليتهم رفقوا بالخلق أو رحموا
خانوك لما رأوا منك الخيانة في ... بنيك والمرء موسوم كما يسم
حبـــت آلك حتى بعضهم هلكوا ... كأنما لم تكن قربى ولا رحم
حاولت إطفاء نور الحق وهو لظى ... تثور أفواهه إن سد منه فم
طال الزمان على جور تعالجه ... وعيل صبر الورى واستحوذ السأم
ضيقت دارهم في الأرض فاتسعت ... والمرءُ مستبسلٌ إن عضه الألم
قد جمع الظلم منهم كل مفترق ... وشدّ ما استتروا في الأمر واكتموا
وكلما نام عنهم رهطك انبعثوا ... يدبرون وإن لاحظتهم جثموا
وعند ما اكتملت الموثب عدتهم ... توكلوا واستخاروا بالذي عزموا
سلوا عليك سيوف العدل مرهفة ... كأنها شهب في الأفق أو رجم
شقوا بها جلابيب الدجى شفقاً ... بشت له الأرض وانجابت به الظلم
وطالبوك بحق كنت هاضمه ... وحاكموك إلى البتار واختصموا
فأدوا بأرواحهم حباً بأمتهم ... فلتحي تلك السجايا الغر والشيم
قد كان ما كان والرحمان ناصرنا ... فالعدل منتصرٌ والجور منهزم
دبرت فتنة سوءٍ تستعيد بها ... من مجدك الباطل الغرار ما هدموا

مجد كبير طوته ظلمة كثفت ... ثم انجلت فإذا ما تحتها ورم
كروا بعزمة حر جاء منتصراً ... لنفسه واستباحوا منك ما احترموا
فأنزلوك عن العرش الرفيع وما ... كانوا يريدونها لكنهم رغموا
تأبى الشريعة أن تبقيك حافظها ... وأنت بالغدر والإغواء متّهم
فاليوم تعلم عقبى من يخون ومن ... يطغى وتندم إذ لا ينفع الندم
هبطت من قمة الأمجاد منحدراً ... كصخرةٍ حطها من شاهق عرم
ففي هبوطك عاد الملك مرتفعاً ... وفيهلاكك كل الخلق قد سلموا
كانت بإقبالك الأقدار عابسةً ... فأصبحت بعد ما أدبرت تبتسم

دمشق: ف

السلطان عبد الحميد المخلوع

قلما جاء في الملوك من ترضيك أخلاقه وأعماله لضعف التربية الدينية والمدنية ولأن الملك يسكر فيقتضي له عقل كبير يحسن به صاحبه التصرف ويراعي فيه حقوق الخالق والخلائق. ولذا ندر في ملوك بني عثمان والملك متسلسل فيهم منذ زهاء ستة قرون من تأهل بالفعل للجلوس على عرش السلطنة فقد رأيناهم وفيهم الأخرق والأحمق والمنتهك والمسرف على نفسه والسفاك ولكن لم يأت فيهم على التحقيق مثل السلطان الخامس والثلاثين عبد الحميد الثاني.

نقول فيهم وما أخلقنا أن نقول في غيرهم من ملوك الإسلام بل وفي الأمم الأخرى فقد تدبرنا تراجم ألوف من الملوك والعظماء ولم نشهد لعبد الحميد مثيلاً في أخلاقه وأعماله. بل رأيناه يشبه الناصر لدين الله العباسي بتجسسه وحرصه والحاكم بأمر الله الفاطمي بهذيانه وتلونه والحجاج بن يوسف الثقفي ببطشه وسفكه والسلطان إبراهيم